الفصل الثالث والعشرون[1]

بيان بمحيط قلعة مصر السفلى وجميع أبوابها وأبراجها

تسلحت أنا الحقير وغلامان لى ولبسنا أحذيتنا وخرجنا فى وقت السحر من باب الوزير وهو أحد أبواب القلعة الداخلية. وصعدنا أكمة فى الجانب الشرقى وهبطنا خمسمائة قدم وهناك «باب النظامية» وهو باب خشبى يتجه ناحية الشرق. وتقدمنا خمسمائة قدم صوب الشمال وهناك «باب چقور قرافة» - أى باب القرافة - وهو من الخشب ويتجه إلى جهة الجنوب. ومشينا ألف قدم فى رملة جانب سور القلعة فواجهنا «باب الدرب الأحمر» وهو باب خشبى من طبقتين متجه إلى الشرق. وفى هذا الموضع تغطى الرمال أسوار القلعة إلا أن داود باشا أقام سورًا من طبقة واحدة للقلعة، وعبرنا هذا الموضع وتقدمنا خمسمائة قدم فواجهنا «باب خوه المغرب» الذى كان قرافة للمغاربة فى عهد المعز لدين الله. وهو باب خشبى صغير يتجه إلى الناحية القبلية. وقد جددت أسواره حديثًا ومقبرته كلها داخل أسوار القلعة القديمة. وخارج هذا الباب مشينا إلى نهاية سور القلعة القديمة فواجهنا على بعد ألف قدم «قله كوم» أى برج الرمال وهذا البرج زاوية من قلعة مصر تطل على الناحية الشرقية. ومضينا فى اتجاه النجم ألف قدم أخرى من ركن جدار القلعة فواجهنا «باب الناصر» وهو باب حديدى من طبقتين يبلغ حجمه عشرين ذراعًا وفى عتبته العالية كتب بخط الجفر تاريخ صلاح الدين، وموكب جميع الحجاج والوزراء يدخل ويخرج من هذا الباب، وهو باب الطريق الرئيسى المتجه إلى الشرق. ومن أسفل سور القلعة باتجاه النجم والريح مشينا خمسمائة قدم فوصلنا إلى «باب الفتوح» وهو باب حديدى مكشوف من طبقتين ويبلغ طوله عشرين ذراعًا. وهو باب يزدحم الداخلون والخارجون فيه. وتقدمنا ألف قدم من أسفل سور القلعة صوب الغرب فواجهنا «باب البحر» وهو كذلك باب حديدى من طبقتين متجه إلى الغرب وارتفاعه عشرة أذرع. وفى هذا الموضع تختفى المنازل والحدائق وراء أسوار القلعة. وخطونا نحو حافة المدينة ولكن وجدنا أبوابًا كذلك فى محلة أطراف المدينة

(١) هكذا فى الأصل.

وعليها أسوار قلعة ومزاغل وبوابون ومفاتيحها مع أئمة الحارة، ومضينا ألف قدم من «باب البحر» على جانب الحدائق فواجهنا «باب اللوق» وهو باب خشبى يتجه إلى الغرب وأمامه بيوت الدعارة والمواخير والمقاهى. ومن خارج باب اللوق مضينا جنوبًا مائتا قدم فواجهنا «باب عبادة» وهو باب خشبى يتجه إلى الغرب وأسفله جامع ولد عبادة وهو جامع مقام على أربعين عمودًا وله منارة ويقع بالقرب من بركة النيل على جسر الليمون وهو جامع يستحق المشاهدة، فى فنائه شجرة نبق عظيمة لا نظير لها فى مصر، ومضينا مائتى قدم صوب الجنوب على ضفة البركة وعبرنا حديقة العجم وبلغنا «باب قنطرة الدكة» وهو على بعد سبعمائة قدم منها وأسفل هذه القنطرة جامع سيدى الشيخ حسن الشاذلى وهو مدفون فيه. وتحت هذه القنطرة تتدفق مياه بركة الأوزبكية وإلى الجنوب منها مضينا مائتا قدم فبلغنا «باب سكينة» وهناك جامع سكينة وهو جميل، ثم مضينا عبر الحدائق واتجهنا نحو الجنوب ألف قدم فبلغنا «باب الدباغين» وهو باب خشبى متجه نحو الغرب وعليه أسوار القلعة، وأمام الباب جسر، ومشينا فى البساتين صوب الجنوب خمسمائة قدم فواجهنا «باب الصقائية» وهو باب خشبى يتجه نحو الغرب ودخلنا هذا الباب وعبرنا من الحارة مائتا قدم حتى بلغنا جامع الجبيّة وفى طريق بولاق سِرنَا سبعمائة قدم فبلغنا «باب الأصمعى» وسوق النصرية فى هذه الحارة وكذلك جامع «أميرا خور» وهو جامع بديع. ثم مضينا جنوبًا ستمائة قدم ومررنا «بقنطرة السبوع» فواجهنا «الباب الجديد» وهو على الطريق الرئيسى وعلى عتبته العالية أسوار ومزاغل. ثم عبرنا من أمام ضريح السيدة رقية بنت الإمام على، وتقدمنا نحو الجنوب أربعمائة قدم فواجهنا «باب عز الدين»، وهناك جامع جمال الدين وهو باب خشبى متجه إلى الغرب، ثم اتجهنا جنوبًا خمسمائة قدم فى الرملة فبلغنا «باب حارة النصارى» وهو باب من الخشب متجه إلى الغرب. وعليه أسوار ومزاغل وراء هذا الباب جميع الحانات والبغايا والصبيان. وتقدمنا ثمانمائة قدم أسفل سور القلعة فواجهنا «باب ست نفيسة» وهناك جامع السلطان خير الأم وهو باب خشبى مكشوف يطل على ضريح السيدة نفيسة. ثم تجولنا خارج حى السيدة نفيسة وتقدمنا مائتى قدم صوب الشمال

فبلغنا «باب القرافة الوسطى» ومضينا أمام قبر الطويل وتقدمنا خمسمائة قدم صوب الجنوب فبلغنا «باب القرافة الكبرى» وهو باب خشبى كبير متجه إلى الشرق ومنه يكون المضى إلى الإمام الشافعى وعمرو بن العاص، ثم مضينا خمسمائة قدم أسفل أسوار القلعة المسماة قره ميدان فبلغنا «باب الفارض» وهو كذلك باب خشبى يتجه إلى الشرق، ثم مضينا خمسمائة قدم صوب الشرق فبلغنا «باب الجمالين» وهو باب خشبى يتجه نحو الشرق وهو أسفل قصر الباشا بالقرب من ميدان قواق، وبهذا الباب يكون قد تم عدد الأبواب الموجودة فى جهات القاهرة الأربع.

وقد أدركنا التعب ومع ذلك مضينا من أسفل أسوار قلعة قره ميدان وصعدنا الأكمة من «باب المطبخ» وخطونا من خندق القلعة وتجولنا داخل القلعة الداخلية وهى حجرات الانكشارية. حتى إذا بلغنا «باب النظامية» نكون قد خطونا ألفىّ قدم. وعندما اقترب وقت الغروب دخلنا باب النظامية وعُدْنا إلى مسكننا وقد خارت قوانا.

وعلى هذا يكون طول أسوار ضواحى القلعة لمصر السفلى خمسة عشر ألفًا وخمسمائة قدم. وواحد وعشرون باب قلعة، وعدد أبراجها ثلاثمائة وأربعون برجًا وسبعة آلاف متراس. أما أبواب القلعة التى بلا أسوار فعددها سبعون بابًا من الخشب عليها أسوار ومزاغل.

وفى الصباح تسلحنا وبلغنا «باب الناصر» على صهوة جيادنا وهناك ترجلنا ثم خرجنا من باب الناصر وباب الفتوح حتى وصلنا إلى جانب قيون ومنها بلغنا جامع الظاهر بيبرس وبعد ذلك بلغنا قنطرة الأوزبكية ثم قنطرة الليمون. وبذلك نكون قد قطعنا ضاحية عظيمة يبلغ طولها عشرة آلاف قدم.

وجملة القول أن مناطق القلعة ذات الأسوار وأبواب ضواحى القلعة التى بلا أسوار وابتعادنا عن القلعة بعشرة آلاف قدم يكون محيط عمائر مدينة القاهرة ٤٣٠٠٠ قدم وانتيهنا من ذلك فى يوم واحد بعد الظهر. واستغرق سيرنا سبع عشرة ساعة. أما ما ذكر سلفًا عن القلاع الداخلية وقلعة الباشا فمما يدخل فى هذا الإحصاء. ويخرج من هذا الإحصاء مدينة بولاق ومصر عتيقة ومصيف السلطان قايتباى وحى الإمام الشافعى

والإمام الليث وعمرو بن الفارض وأبو السعود الجارحى لأنها أحياء متباعدة عن مصر. كما أن باب الخرق وباب الشعرية وهما من الأبواب العالية من بناء أمير الجيوش بدر الجمالى وبذلك يكون محيط مصر المحروسة ٤٣٠٠٠ ألف قدم والسلام.

أما ضواحى مصر الجنوبية والشرقية والشمالية فقد أصبحت أسوار القلعة فيها خندقًا لتراكم القمامة. لقد كانت قلعة معمورة فى عهد صلاح الدين لكن فى بعض مواضعها بدلاً من الخنادق فى أطراف المدينة كانت البرك تجرى فيها مياهها مثل بركة الأوزبكية والناصرية، وكانت البرك بمثابة الخنادق. وعلى حافة هذه البرك كانت هناك الأبواب سالفة الذكر، وفى كل ليلة كان يتجول فيها الحراس والبوابون والصوباشية ومحافظو القلعة والقواسون وهم يوصدون جميع الأبواب. ففى مصر من الفلاحين واللصوص وأتباعهم والمجرمين ما لا وجود لمثلهم فى بلد آخر.

بيان البوابات فى مدينة مصر السفلى

ومن شرور هؤلاء اللصوص أقيمت أبواب من طبقة أو طبقتين فى أركان مدينة مصر وأقام أعيان مصر الطُّنُفُ [1] على الأبواب وكانت كواتها مطلة على الطريق ومن هذه النوافذ يطلقون السهام والرصاص على اللصوص. وفى كل زاوية باب مقام وبوابو هذه الأبواب جميعًا يخضعون للصوباشى وبموجب دفتره فإن عدد الأبواب التى يقفون حراسًا عليها ستة وعشرون ألف باب. ويدخل فى هذا الإحصاء أبواب مدينة بولاق ومصر القديمة. وهذه الأبواب كلها توصد بعد العشاء ولا يستطيع أحد أن يخرج منها. ومفتاح هذه الأبواب يبقى أمانة عند شيوخ الحارات. والبوابون يستندون إلى عصيهم الطوال الغلاظ خلف هذه الأبواب ويتناوبون على حراستها ذلك أنه إذا ضاع شىء من هذه الحارة يسأل عنه البواب ويوقع عليه العقاب ونظير هذه الحراسة يتقاضى البواب راتبًا من أهالى الحارة.

* * *

(١) السَّقِيفَةُ تشرع وتبنى فوق باب الدار ونحوها للوقاية من المطر. والجمع: أطْنَافٌ، وطُنُوفٌ.